

مقياس فن المقال في الجزائر

د: واضح

السنة الثالثة: تخصص أدب جزائري

المحاضرة الأولى: فن المقال

مفهوم المقال:

التعريف اللغوي:

لفظة المقال مأخوذة من الفعل "قال"، يعرفه بن منظور في لسان العرب فيقول: "قال يقول قولاً وقيلاً ومقالة".

يقول الحطيئة مخاطباً أمير المؤمنين عمر بن الخطاب:

تحنن عليّ هداك المليـك فإن لكل مقام مقالاً.

وقيل: "القول يكون في الخير والشر، والقيل والقال يكون في الشر خاصة.

وقد وردت هذه لفظة القول في القرآن الكريم: "وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب

عتيد" سورة ق/ 18.

وفي حديث حضرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم قال: "نضّر الله امرؤ سمع

مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها، فربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه" رواه الترمذي وابن

ماجة. وعليه فاللفظة تدل على الكلام، وهو وسيلة لنقل الأفكار.

والمقال هو اللفظ المنطوق باللسان سواء كان في الخير أو الشر.

التعريف الاصطلاحي:

المقال "بحث قصير في العلم أو الأدب أو السياسة أو الاجتماع، ينشر في صحيفة أو

مجلة"

"وهو بحث موجز يتناول بالعرض والتحليل قضية من القضايا أو جانبا منها".

ويعتبر "أحد فنون النثر الحديث، وهو قالب أو شكل فنيّ يستخدمه الكاتب في عرض

فكرة ما أو موضوع معيّن بطريقة مترابطة وأسلوب متميز يمتع القارئ ويحقق له فوائد

فكرية وثقافية، ويربطه بواقعه ومجتمعه وما يمرّ به من أحداث يومية، بل ويربطه بالأحداث

العالمية"

قطعة نثرية محدودة الطول، تعبر عن موضوع معين باستعمال الحجج والبراهين، لإقناع المتلقي والتأثير فيه، "يهدف كاتبه من ورائه إلى التعبير عن مشاعره وإحساسه اتجاه الطبيعة أو اتجاه الحياة، ويعكس فيه تجربته، ويعنى فيه بالصياغة والجمال واللذة، ويراعى فيه التركيز ما أمكن"، فالشعور والحجة من أهم صفات فن المقال، لأنه يستهدف الإقناع والتأثير والفاعلية القرائية.

نخلص في الأخير إلى أن المقال في معناه المبسط فنّ نثري ، يعرض فيه الكاتب قضية من القضايا أو فكرة ما بطريقة منظمة وأسلوب مميز وألفاظ سهلة، يفهمه القارئ ، ولا يجد فيه كلفة ولا تعقيدا بهدف إيصال الفكرة، موضوعه هادف، يعرض فيه الكاتب فكرة سواء أكان موضوعها دينيا أو اجتماعيا أو سياسيا أو تاريخيا أو نقديا، وغيرها من الموضوعات التي تتصل بمجالات الحياة المختلفة.

نشأة المقال في الأدب الجزائري الحديث:

لم تعرف المقالة لها منشأ في الجزائر غير الصحافة، وعلى الرغم من أن الصحافة في الجزائر بدأت بظهور جريدة المبعثر الحكومية سنة 1847، إلا أن المقالة لم تظهر إلا بعد نصف قرن من بداية المبعثر، أي منتصف الق 19، ذلك أن الصحافة العربية في الجزائر كانت تخضع للإدارة الفرنسية، ثم هي مع هذا التأخر لم تكتمل ولم تتحدد معالمها الفنية إلا في الق 20، ويعود الفضل الكبير في ظهور المقال الصحفي في الصحف الجزائرية إلى النماذج التي اطلع عليها الكتاب الجزائريين في الصحف المشرقية، التي عرفت طريقها إليهم منذ أواخر الق 19، فإن الأقلام الرفيعة التي تكتب المقالات الرائعة على أعمدة "العروى الوثقى" و"المنار" و"المؤيد" و"اللواء"، قدّت للمعجبين بها في الجزائر أمثلة حية، في الأفكار والأساليب، راحوا يقلّدونها ويقتفون أثرها.

وإلى جانب ذلك، دور الحركات السياسية والإصلاحية في اليقظة الفكرية، مما أسهم في ظهور المقالة لمعالجة تلك المشاكل السياسية والإصلاحية، فقد نشأ المقال أولا في

أحضان الحركة الإصلاحية، التي كان كتابها يصدر عن رؤية دينية إصلاحية، وينفعلون ويعبرون عن مشاعرهم وأحاسيسهم، فقد اتجه المقال الإصلاحي إلى ناحيتين اثنتين:

- مخاطبة العاطفة والتأثير في الوجدان.

- التعبير عن ذاتية أو شخصية الكاتب.

أنواع المقال الإصلاحي في الجزائر:

إن اهتمام كتاب المقال بالإصلاح في جميع مجالاته، الدينية والسياسية والفكرية والاجتماعية، كان بهدف الحفاظ على مقومات الشخصية العربية الجزائرية، التي سعى الاستعمار الفرنسي إلى طمسها، وبالتالي إيجاد جيل غريب عن الإسلام وتعاليمه، ولا شك أن الوقوف لردّ الاستعمار الفكري من أجل الأعمال وأكثرها مشقة وعناء، ومن هنا سارع المصلحون في بعث الإسلام في النفوس والسلوك، بشحن الفاعلية الروحية للمسلم وبعثه في الأفكار والمفاهيم، ولن يتم ذلك إلا بتنقية الفكر الديني من الشوائب والبدع والثقافة الدخيلة مع ربطه بما يستجيب ومتطلبات العصر الحديث.

- المقال الديني:

لقد بدأ اهتمام المقالة الصحفية بالإصلاح الديني قبل الحرب العالمية الأولى، متمثلاً في محاربة بعض الأقلام الإصلاحية للخرافات والبدع التي كانت متفشية في المجتمع الجزائري تفشياً فظيماً، فهو الجانب الحساس الذي يؤثر في جميع الميادين، نذكر: عبد القادر المجاوي (1848-1914)، وعمر راسم (1884-1959)، وعمر بن قدور الجزائري (1886-1932)، عبد الحليم بن سماية (1866-1933)، فقد استحوذ هذا الموضوع على أفكارهم أكثر من أي موضوع، فقد كانت فلسفتهم متأثرة بالمذهب القائل بأن الإصلاح ينبغي أن يبدأ من الدين.

فقد توصلت الأبحاث في هذا المجال إلى أن عمر راسم هو أول كاتب صحفي

جزائري رفع القلم داعياً إلى الإصلاح الديني في حماس متوقّد وجرأة عجيبة، فقد كان مخلصاً أميناً بدعوة الشيخ محمد عبده.

كما تؤكد الدراسات السابقة أن أسلوب كتاباته عنيف جداً، يوجه كلامه في غير خشية من أولئك الذين تحلوا بمفاسد التمدّن الحديث، ومن ذلك له مقال يصدر فيه عن نفس جياشة

ينتقد في تحسر أخلاق الجزائريين، في نعمة لا تخلو من التشاؤم، يقول فيه: "كيف يكون المسلم مسلماً في بلد خلت مساجده من الراكعين الساجدين، وامتألت شوارعه باللصوص والفجار والسكيرين؟

كيف يكون المسلم مسلماً في بلد خلا من المحسنين، ولا إحسان لأهله إلا مع الفاجرات والمجرمين؟

كيف يكون المسلم مسلماً في بلد ظهرت فيه الأثرة وحبّ النفس وعبادة المال والانسلاخ من الدين، والتظاهر بالفحشاء وتقليد الكافرين؟"

وكذلك نجد الإمام عبد الحميد بن باديس يعنى في مقالته "عاطفة الإحسان" بشجب النزعة الإنسانية المستولية على نفوس بعض الموسرين فقبضت أيديهم عن العطاء في سبيل المشاريع الخيرية. يقول: "... إنما الشيء الذي يعوزنا... هو الشعور العام بعاطفة الإحسان واتباع ذلك الشعور بالعمل، لأن موسرين في الأكثر ما فتنوا يعتمدون على ما يعلوا وجوههم من أثر النعمة السطحية أكثر من اعتمادهم على ما بين جنوبهم من العواطف النبيلة، ولأنهم قضوا شطرا من الحياة وهم خلوا من الصفات التي جعلت أمثالهم يلقون على العالم أروع الدروس في التضحية والوطنية والمجد، ولأنهم يتضاءلون أما الطرق الشريفة النافذة إلى الواجب المقدّس..."

فهو يدعو إلى الشعور بالإحسان إلى الغير والأخذ بيد الفقير. ونجد من المصلحين أيضا مبارك الملي، وعبد الرحمن بن عمر وغيرهم...
- المقال الاجتماعي:

لم تكن حالة الجزائريين الاجتماعية تقلّ فظاعة أو سوء عن حالتهم الدينية، فقد كانت هناك ضغوطات على الأسرة الجزائرية وعلى المجتمع، ضغط سببه غزو العادات والتقاليد الأوروبية الفرنسية للمجتمع الجزائري، وتقليد بيّن لهذه البيئة الأجنبية، بالإضافة إلى الضغط الاستعماري على الفرد والمجتمع، وضغط الحكم الأجنبي وانتشار الفقر والأزمات الاقتصادية، مما دفع الكتاب إلى هذا الجانب، فالدافع الذي وقف وراء المصلح الجزائري كان ينبع من إيمان واعتقاد راسخ بأنه لا يمكن القيام بأي عمل سياسي واجتماعي قبل تحرير الضمائر من الجمود والجحود.

لقد عنيت المقالة الصحفية الجزائرية بموضوع الإصلاح الاجتماعي عناية فائقة وأولته من نفسها أهمية كبرى.

المواضيع التي اهتمت بها المقالة الصحفية تلك التي تعنى عناية خاصة بالحياة الاجتماعية، كالأخلاق والمرأة والطفل والشباب، ويذهب الدكتور محمد ناصر في كتابه "تاريخ الصحافة العربية الجزائرية" أن المقالة الصحفية في طليعة المعركة توعية وتوجيها، حرصت على موضوع الأخلاق كله...

أما النخبة من شباب الحركة الإصلاحية فقد أفصحت عن مبدئها هذا في افتتاحية العدد الأول من "المنتقد" قائلة: "...ونحسن ما كان من أخلاق الأمم حسنا، وموافقا لحالنا وتقاليدنا ونقبله، ونقبح ما كان منها قبيحا أو مباينا لمجتمعنا وبيئتنا ونرفضه"

والحق أن الصحافة الإصلاحية قد وفّت بوعدها، فكانت حارسا أميناً ومربيا حاذقا ورائدا صادقا... لأنها حاربت الانحلال الخلقي وقاومت الآفات الاجتماعية محاربة النزاعات الفردية على سبيل المثال لا الحصر. فقد أدرك الكتاب الإصلاحيين بأن التماسك الاجتماعي بين أفراد المجتمع والتعاطف القوي والالتحام في السراء والضراء هو الطاقة القوية التي تدفع بالأمة نحو الأمام، ومن ذلك ألحوا على التكتل والاتحاد، وكان تنديدهم بالنزاعات الفردية موضوعا أساسيا اهتمت به أقلامهم بكل جدية وعناية فائقة

ومن الكتاب الجزائريين لفتا لنظر الباحث هو الناقد الاجتماعي عمر راسم، فقد عرفناه فيما سبق مصلحا دينيا مؤمنا بأفكار محمد عبده، فإنه هنا ثائر اجتماعي وناقد للأغنياء الأنانيين الذين ليس لهم ذرة رحمة على الفقراء والضعفاء.

- المقال السياسي:

مهدت سياسة التعسف الاستعمارية سياسة هادفة شملت مختلف الميادين والمذاهب، فتدهورت الأوضاع السياسية بصورة ملحوظة، بحيث أن هذا الاستعمار بلغ ذروته في التحكم والتمييز العنصري وفي رفض الشخصية الجزائرية والثقافة القومية، فكان رد الجزائريين هو رفض السياسة الفرنسية الاستعمارية، فاتخذوا المقال السياسي توجها مميزا، توجيهها يتحاشى الخوض في المواضيع السياسية ويستعمل ضروبا من التعريض والتلميح، وها هو الشيخ الطيب العقبي ينشر مقالا بجريدة الشهاب" يلح فيها على الشباب الإصلاحي أن

يبتعد عن السياسة كل الابتعاد: " ... وتباعدوا كل التباعد عن سياسة الحكومة، ومزاحمة الغير حتى نسلم ويسلم حزبنا الإصلاحى..."

ويؤكد الشيخ رأيته وموقفه حيال السياسة حين يصدر جريدة "الإصلاح" فيقوله في افتتاحها: "... لا نكتب أبدا في السياسة التي يفسرها قاموس الحكومة بمعاداة الدولة، والعمل على خلاف مصلحتها لأننا لسنا من يقول بوجوب إلقاء الأجنبي في البحر..."

والابتعاد عن السياسة في نظر بن باديس لا يعني إهمال الشؤون الوطنية والقومية، يقول: "ولأننا جزائريون نعمل للشعب الأمة الجزائرية وإحياء روح القومية في أبنائها وترغيبهم في العلم وعليها واجب الخدمة والنفع في الإنسانية"

ويؤكد الشيخ وطنيته وحبته للجزائر فيقول: "نحب من يحب وطننا ويخدمه ونبغض من يبغضه ونظلمه، فهذا نبذل غاية الجهد في خدمة وطننا الجزائر وتحبيب بنيه فيه، ونخلص لكل من يخلص له، ونناوئ كل من يناوئه من بنيه ومن غير بنيه"

لم يتوقف اهتمام الكتاب الجزائريون في مقالاتهم الصحفية بقضايا المجتمع الجزائري في جميع ميادينها، وإنما تعدى ذلك إلى الوطن العربي الإسلامي، ويعدّ الصحفي عمر بن قدور الجزائري من السابقين المهتمين فقد كان مهتما بهذه القضايا، واقفا نشاطه الصحفي على الكتابة حولها بحرارة وإيمان .

وكما يقول محمد ناصر في كتابه الصحف العربية، لعلّه لم يرفع القلم أول أمره إلا انتصارا لدولة الإسلام تركيا، إذ كانت مقالاته الأولى تصدر النصيحة للإمبراطورية العثمانية.

وإلى جانب تركيا نجد قضية فلسطين التي سخر لها الكثير من الكتاب أقلامهم للخوض في غمار الدفاع عن هذه القضية.

فمن المهتمين الجزائريين محمد السعيد الزاهري (1899-1956)، فقد حيره نشاط الصهاينة قياسي في تنفيذ مخططاتهم في الاستيلاء على أرض فلسطين فيعبر عن موقفه من الصهيونية باعتزاز في قوله: "... إني والحمد لله أول مسلم كتبت بحرية عن المسألة الصهيونية ولم أكن ديني وضميري لأرض على جماعة اللصوص وعار الإنسانية، اليهود..."

كيف أخون ديني أمام هؤلاء الذين تسببوا في كل أضرارنا ... ولم يسبقني في هذه المسألة إلا
عمر راسم"

ومن المهتمين كذلك توفيق المدني وأبو اليقظان.

عناصر المقال:

المقال في مفهومه العام يركز على ثلاث عناصر جوهرية، هي كالآتي:

المادة- الأسلوب- الخطة.

المادة:

مادة المقال هي الموضوع أو الفكرة أو الرأي الذي تقوم عليه المقالة المراد كتابتها،
فقد تستمد مادتها من التاريخ أو الأدب أو المجتمع أو الطبيعة أو الطب أو الفلك... وغيرها
من مجالات الحياة المختلفة.

فلابد للكاتب أن يختار موضوعا مشوقا جذابا مهما حتى يلفت انتباه القارئ.

الأسلوب:

إذا ما أوتي الكاتب أسلوبا مشوقا، وثقافة واسعة ورشاقة في السرد والتعبير، تركت
المقالة صدى طيبا في نفس القارئ.

فقد يكون الأسلوب بسيطا بليغا، أو يميل إلى شيء من التكلف والصنعة، وقد يكتب
بأسلوب فصيح سليم من الأخطاء بعيدا عن الابتذال والتكلف، متحررا من قيود البيان
والبديع. كما أن الكاتب إذا كان ذا حجة قوية ومنطق سليم في عرض فكرته استحوذ على
ذهن القارئ وأمتعته.

الخطة:

أما العنصر الثالث الذي تقوم عليه المقالة فهو الخطة، يعرض فيها الكاتب هيكل
المقال، وهي تنقسم عموما إلى ثلاثة أقسام:

أ- المقدمة:

هي نواة المقال، يمهد الكاتب من خلالها لموضوع المقال بهدف تهيئة ذهن الكاتب
وتعريفه بمشكلة المقال، ولاستقبال ما سيطرح في العرض.

وللمقدمة أهمية بالغة، فهي التي تجذب القارئ فيمضي في القراءة إذا كانت جيدة ومشوقة لما بعدها.

فالمقدمة تتألف من معارف لا ينكرها المتلقي أو يعترض عليها، لأن الغرض منها التمهيد بالموضوع الذي يتناوله، حتى تنهياً النفوس لتقبله، ويجب أن تكون موجزة وملائمة لموضوع المقال وتتصل به اتصالاً مباشراً، مع ضرورة أن تصاغ بألفاظ سهلة جذابة وعبارات فخمة ومعان واضحة تشوّق القارئ وتنشط فكره، فلا يلحقه السأم أو يصيبه فتور قبل أن ينتقل للمرحلة الأخيرة.

كما قد تحتوي المقدمة تساؤلات يريد الكاتب الإجابة عنها في العرض ويوضح موقفه منها.

ب- العرض:

صلب المقال أو الموضوع، وهو الجزء الأوسع والأهم في المقال، يحتوي على المادة الجوهرية، وتفاصيل الموضوع أو الحدث أو القضية التي يطرحها، بالإضافة إلى الأدلة والشواهد والحجج والبراهين المنطقية التي تؤيد وجهة نظر الكاتب وتقنع القارئ وتشبع رغبته.

يشترط في العرض وحدة الموضوع لمساعدة القارئ على التركيز والفهم، كما يشترط الترابط والتلاحم والتسلسل في عرض الأفكار. يجب على كاتب المقال أن يقدم الأهم قبل المهم في الأفكار، مؤيداً وجهة نظره بحجج منطقية متجها بعرضه رويداً إلى الخاتمة.

ج- الخاتمة:

ينبغي ألا تقل أهمية عن المقدمة، باعتبارها آخر ما يبقى منطبعاً في ذهن المتلقي بعد الانتهاء من الاطلاع على المقال.

ولابدّ أن تكون الخاتمة قوية محكمة واضحة غير مسرفة في الطول حتى لا ينعدم تأثيرها، لأن الخاتمة يتوقف عليها مدى اقتناع القارئ أو عدم اقتناعه بالموضوع.

وهي خلاصة معالجة الموضوع، لتنتهي باستنتاج يؤكد فيه الكاتب على الجديد الذي خلص إليه.

وما يمكن استخلاصه أن هذه الأقسام الثلاثة (المقدمة- العرض- الخاتمة) هي الأساس في بناء المقال، حيث تبدأ بمقدمة تمهيدية ملفتة للانتباه حول الموضوع، وتعرض على العرض ليعرض فيه الكاتب أفكاره وآراءه ومواقفه مدعما كل ذلك بشواهد وبراهين تؤكد وجهة نظره، وتنتهي بخاتمة بمثابة حوصلة حول الموضوع وأهم الوصايا أو النتائج المتوصل إليها.

أنواع المقال:

لكل فنّ من الفنون النثرية ما يميزه عن غيره من الفنون، فالمقالة تنفرع إلى نوعين أساسيين: **المقالة الذاتية- المقالة الموضوعية.**

1- المقالة الذاتية:

ونعني بها المقالة الأدبية، وهي التي تبرز شخصية صاحبها، حيث تبدو جذابة تستهوي القارئ وتشده إليها، أسلوبها أدبي يزخر بالعاطفة ويحرك الانفعالات، ويستند إلى الصور الخيالية والعبارات الموسيقية والألفاظ الجزلة.

فالمقال الأدبي وسيلة للتعبير عن إحساس الكاتب والنهوض بمشاعره ، "فهو قطعة إنشائية تدور حول موضوع معين، أو حول جزء من هذا الموضوع من دون إطالة، أو هي فن من فنون الأدب الإنشائي، تلم بمظاهر الموضوع الخارجية بسهولة وسرعة، وتعنى بالناحية التي تمس الكاتب عن قرب" إذ لابد أن يكون فيها الكاتب صادقا في مشاعره وأحاسيسه وانفعالاته فيكسب بذلك ثقة القارئ.

فالكاتب في المقالة الأدبية يعرض خواطره ومشاعره وآراءه ومواقفه، فهي من إبداعه، ولا يحتاج فيها أن يستند إلى مصادر ومراجع للكتابة.

وعليه، تعتبر المقالة الذاتية مصدرا خصباً ثريا للدراسات العلمية، وهي أنواع، نذكر منها: المقال الشخصي، المقال الاجتماعي، المقال الوصفي، المقال الساخر، مقال السيرة، المقال الإنشائي.

2- المقالة الموضوعية:

وتسمى أيضا بالمقالة العلمية، وهي التي يهدف كاتبها إلى تقديم مادة معرفية أو فكرية تقديمًا واضحًا منسقا بأسلوب واضح، تخضع لمنهج من مناهج البحث العلمي، وما يتطلبه من جمع مادة المقال وترتيبها وتنسيقها، ثم عرضها بأسلوب واضح لا لبس فيه ولا التواء ولا غموض، لتصل في الأخير إلى نتائج علمية دقيقة.

فالمقالة العلمية لا تفسح المجال أمام انفعالات كاتبها وأحاسيسه ومشاعره الخاصة، فينحي قدر الإمكان شخصيته وذاتيته وأهواءه، يركز على الحقائق العلمية، فتكون معالجته للموضوع معالجة موضوعية محايدة، تضع الأمور في نصابها سعيًا وراء الإقناع. وقد ضعف شأن المقالة الأدبية مؤخرًا، وأخذت المقالة الموضوعية تحلّ محلها وتعمّ بين الكتاب بانتشار الصحف والمجلات المتخصصة، حتى شملت جميع فروع العلوم الطبيعية والإنسانية.

ومن أنواع المقالة الموضوعية نذكر: المقال النقدي، المقال الفلسفي، المقال النقدي، المقال السياسي، المقال الاجتماعي، المقال الصحفي، المقال التاريخي.

عوامل ظهور فن المقال في الجزائر:

يعود ظهور هذا الفن في الجزائر إلى منتصف الق 20، حسب عبد الله الركيبي إلى

العوامل التالية:

- انتشار الصحافة.
- انتشار الوعي والتعبير عن الرأي
- رجال الفكر الإصلاحي الذين تأثروا بالثقافة العربية وبتراثها العريق وبنهضتها الحديثة في شتى الميادين الثقافية والأدبية والفكرية.
- الاحتكاك بالصحافة الأجنبية
- تشعب المشاكل الاجتماعية والسياسية.
- والظاهر أنّ أسلوب المقال في بداية ظهور هذا الفن لم يخل من الصنعة اللفظية المتكلفة، ثمّ بدأ يتحرر من هذه القيود، ويميل إلى البساطة في التعبير، والتركيز على الفكرة،

والعمق في المعالجة، مع الموضوعية والبعد عن الذاتية، كما أصبح كاتب المقال يميل إلى الاختصار مراعاة لحيز النشر في الصحف، أمّا موضوعاتها فقد تنوعت وشملت كل ما كان يحدث في المجتمع نحو الحديث عن السياسة، والعلاقات الاجتماعية، والأحوال الاقتصادية، والقضايا الأدبية والنقدية، وكذا الخوض في النواحي التربوية، والجوانب الدينية، وهو "الأمر الذي أسهم في أن تتعدد الأساليب، وتظهر الأشكال الأدبية مثل: المقال الذي ظهر ليعالج مشاكل سياسية ثم إصلاحية، ثم أدبية، ثم أدبية صرفة، بحيث يمكن أن نقول: إنّ إيمان الكاتب بدور المقال في الحياة الأدبية والفكرية والاجتماعية والثقافية، قد أسهم في انتشاره وساعد على تطوره"⁽¹⁾، ولقد أصبحت المقالة تحظى بشعبية كبيرة كونها متاحة للقراء، ولسرعة نشرها وانتشارها، ولقد وضع عبد الملك مرتاض ذلك بقوله: "إنّ أجمل المقالات الأدبية، وأنقاهما أسلوباً، وأحرها عاطفة، وأقواها حُجة، وأوضحها محجة، نتجت عن هذا الصراع الفكري العنيف..، فظهرت المقالات ذات النفس الطويل، والأسلوب الأنيق، والتحليل المنطقي العميق"⁽²⁾.

المقال الأدبي:

جاء متأخراً عن المقال الصحفي، فنشأة المقال الصحفي في الجزائر يرجع إلى منتصف الق 19. ذلك أن الصحافة العربية الجزائرية في الق 19 كانت تخضع لإشراف الإدارة الفرنسية، وما كان يعنيها هو إيصال الخبر وسياقه في أسلوب بسيط ليصل إلى الناس، ثم إن الكتاب الجزائريين ما كان لهم في هذا الجو أن يعبروا عن إحساسهم ومشاعرهم، سواء فيما يتصل بالمجتمع وقضاياها، أو فيما يخص الطبيعة والحياة بوجه عام، وإنما تمّ ذلك حين نشأت الصحافة الوطنية في بداية الق 20، وأنشأ الجزائريون صحفاً تعبّر عن أفكارهم ومواقفهم، وتعبّر بالتالي عن ذواتهم وآرائهم فيما يتعلق بالشعب الجزائري ومطالبه.

أما العوامل التي أسهمت في ظهور المقال الأدبي كانت كالاتي:

– الصلة بالمشرق واقتفاء الكتب من الأدباء المشاركة.

1- عبد الله الركيبي، تطور النشر الجزائري الحديث، المرجع نفسه، ص134، 135.
2- عبد الملك مرتاض، فنون النشر الأدبي في الجزائر 1931-1954م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط01، 1983م، ص86.

- الحركات السياسية والإصلاحية التي لعبت دورها في اليقظة الفكرية، الأمر الذي أسهم في أن تتعدد الأساليب وتظهر الأشكال الأدبية، مثل المقال الذي يعالج مشاكل سياسية، ثم إصلاحية، ثم أدبية إصلاحية، ثم أدبية صرفة.

وتبعاً لذلك يذهب كثير من المهتمين بالنثر الجزائري الحديث إلى أن فن المقالة الأدبية ظهر في الجزائر في ظل الحركة الإصلاحية وما رافقها من صراع فكري أواسط العشرينيات خاصة بعد تأسيس جريدة المنتقد في سنة 1925م، على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي أثر هذا الجنس الأدبي وأبدع فيه من خلال مقالاته السياسية، والدينية، والاجتماعية، ولقد تطور هذا الفن أكثر خاصة بعدما توالى الجرائد التي تأسست على يد المصلحين والطرقيين ورجال السياسة.

والجدير بالذكر هنا هو أنّ كتاب فن المقال قد التزموا بالمنهجية المعهودة عند المشارق، مقدمة، وعرض، وخاتمة، كما أنهم نوعوا في الأساليب، ووظفوا لغة راقية، تستثير العقول والألباب، ولعل خير من مثل هذا الفن هم رواد الإصلاح في الجزائر وعلى رأسهم علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي تصدوا من خلال مقالاتهم إلى محاربة البدع والخرافات، وكذا توعية الشعب، والدفاع عن قيم الإسلام والعروبة، كالبشير الإبراهيمي، وأبي يعلى الزواوي، والعربي تبسي، ومبارك الملي وغيرهم.

أنواع المقال الأدبي:

1- المقال الأدبي الإنشائي 2- المقال الأدبي الإصلاحي

وعليه يمكننا أن نميز بين نوعين من كتاب المقال:

الأول:

الذي لاءم بين الفكرة والأسلوب العربي التقليدي والبلاغة العربية القديمة، ويأتي في مقدمتهم: الشيخ الإبراهيمي، عبد الحميد بن باديس، العربي التبسي...

الثاني:

هو الذي حاول أن يجدد في الصياغة والمحتوى معا، ويمثل هذا التيار أحمد رضا حوحو في مقاله "الطرقية في خدمة الاستعمار" مجلة الرابطة العربية، و"خاطر حائر" في جريدة البصائر، رمضان حمود وغيرهم ممن عبروا عن مشاعرهم وأحاسيسهم تجاه الحياة بوجه عام.

خصائص المقال الأدبية:

لكل من الفنون النثرية خصائص يتميز بها عن غيره على حسب موضوعاتها، والمقالة الأدبية تتميز بالإجمال والإلمام والتفصيل والإسهاب، وقد تميزت بخصائص مهمة وكثيرة منها ما يلي:

- الإيجاز والبعد عن الإطالة والحشو والاستطرادات التي يمل منها القارئ، ولكن المقالة لم تكن كذلك في مختلف مراحل تقدمها، فقد جاء وقت كانت المقالة تستغرق عشرات الصفحات.

- أنها تعبير عن وجهة نظر الكاتب الشخصية، وقد أصبحت هذه العلاقة الأكيدة بين الكاتب والمقال الذي يكتبه هي السمة الدالة والعلاقة التي يميزها عن سائر ضروب الكتابة النثرية.

- جادة استهلال يجذب القارئ وتشويقه في المقدمة بقية المقال.

- الانسجام بين الفكرة والأسلوب، فالمقالة في العادة تقوم على فكرة رئيسية، وعلى الكاتب أن يختار اللفظ الملائم الذي لا يبعده عن الهدف المقصود

- السمة التي تحدد طبيعته كفن نثري يتميز بحجمه القصير أو المتوسط الطول.

- قطعة من النثر يتحدث فيها الكاتب بنفسه ويحكي بها تجربة مارسها، أو حدثا وقع له، أو خاطرا خطر له في موضوع من الموضوعات.

- وأن الاتزان والنضج والهدوء من أهم خصائص المقال وعلى الكاتب أن لا في عرض عواطفه عرضا مثيرا.

- المقالة هي تعبير تمثل انفعالات وإحساسات في نفسية الكاتب فتخرج التجربة مقرونة بهذه الانفعالات كما تصور جوانب واقعية الأمة الجزائرية.

- اللهجة العنيفة عن المناقشة: لا تعتقد أن الأدب العربي الحديث ونثره بوجه خاص، وقع فيه العنف وشدة اللهجة عند المناقشة الخصم أو جداله ما وقع في أدب المقالة في الجزائر، فقد كانت هذه اللهجة الحادة تبلغ في بعض الأطوار مبلغ الباب الأدبي.
- لقد كان العنف الشديد هو الصفة المميزة في الغالب ، للكتابات المقالية في الجزائر، وكان الابراهيمي حين تناقش خصمه يرميه بألفاظ حداد كأنها شفرات ماضية أو شظايا محرقة.
- السخرية: والحق أن السخرية لا تختلف عن العنف، لأن استخدام سلاح السخرية في الأدب هو في حد ذاته ضرب من العنف، وقص الخصم بقذائف من الكلام، وتقبل الوطء، عنيف الواقع.
- النزعة التعليمية فهي نعمة كانت ترن في كل مقال، فالتزام الكتاب بالقضايا الجادة، والأهداف الوطنية العليا، جعلتهم يحرصون شديد على التوجيه والتعليم، بصفة أو بأخرى ويتجلى ذلك في معظم المقالات التي كتبت خلال هذه الفترة في "الشهاب" و"البصائر" سلسلتها الأولى والثانية، وتتمثل النزعة التعليمية بصورة أقوى وأوضح في مقالات الابراهيمي الذي كان يحشوها بمعلومات كثيرة، يغنم القارئ منها ويفيد، ولا يعني بالضرورة أن مقالات الابراهيمي تقليدية المعمقة، التي جعلت كثيرا من المعلومات تفيض على قلمه بدون شعور.

نماذج من المقالات الإصلاحية

مقالات البشير الإبراهيمي:

تمحورت مقالاته حول الكثير من العناصر المتصلة بالهوية والدين والأخلاق والسياسة وفق حجج دامغة وبراهين منطقية ومرجعيات تاريخية.

- في بيان حقيقة المستعمر:

وفيه يشبّهه بالمرض الفتاك والخفي الذي ينخر جسد المريض في صمت، فيقول: "والاستعمار سلّ يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح، وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمة المعابد، وحارب الإيمان بالإحياء، والتعليم بانتشار الأمية، والبيان العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبير ولا تفكير" كما اهتم الشيخ بإصلاح ما أفسده الاستعمار الفرنسي، وإعادة بعث المجتمع انطلاقاً من أسلوب التشبيه المقترن بالترغيب والترهيب، فيقول: "جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن كما تجيء الأمراض الوافدة، تحمل الموت وأسباب الموت..." فالاستعمار لا يمثل خيراً لهذه الأمة بقدر ما يمثل بؤرة للفساد والشر، فالإبراهيمي حاول في مقاله التحذير من خطورة هذا الوجود الذي سماه بالمرض، لأنه إن لم نجد له الدواء فسيكون خطراً على جسد الأمة، فيفتك بالقيم والمبادئ الإسلامية والإنسانية.

- في بيان أهداف الجمعية:

ارتكز المقال الإصلاحي على إبراز أهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يقول الشيخ: "والحقيقة أن هذه الجمعية تعمل من أول تكوينها للإصلاح الديني والإصلاح الاجتماعي، وكل ذلك...، فالإسلام دين اجتماع.. والإصلاح الديني لا يتم إلا بالإصلاح الاجتماعي..."

- في بيان تحرير العقول:

لقد تناول الشيخ الإبراهيمي مسألة تحرير العقول لما لها من أثر في تقوية الشخصية والسلوك، بالإضافة إلى تحقيق التقدم والازدهار، يقول: "إن تحرير العقول لأساس لتحرير الأبدان وأصل له، ومحال أن يتحرر بدن يحمل عقلا عبدا، إن هذا النوع من التحرير لا يقوم به ولا يقوى عليه إلا العلماء الربانيون المصلحون، فهو أثر طبيعي للإصلاح الديني". حيث يربط الشيخ بين التحرر الداخلي والتحرر الخارجي، لأن تحرير العقول مصدر من مصادر الشعور بالقوة والثقة، وهذا التحرر مرهون بالتشبع بالقيم الدينية القائمة على تحقيق الوجود، كما أن الوصول إلى تحرير العقول يتطلب تسخير العلماء من الأمة، فهم يبصرون الشعوب بما يجب أن يكونوا عليه، وهذا النوع من المقال يعتبر سلاحا للوصول إلى الأنا ومواجهة الآخر.

- في بيان مشكلة المهور والزواج:

عالج الشيخ الإبراهيمي مسألة المهور وأعاب فيها المغالاة، حيث حاول الكشف عن خطورة الظاهرة وآثارها السلبية على المجتمع، فجنده يقول: "تعاني الأمة الجزائرية وجاراتها المتحدة معها في الدين... عدة مشاكل اجتماعية لا يسع المصلحين إغفالها، ولا السكوت عليها بعد ظهور آثارها وتحقق أضرارها، وستعالج البصائر طائفة من أمهاتها ببيان نتائجها ووجه الرأي في علاجها.

أعضل هذه المشاكل وأعمقها أثرا في حياة الأمة وأبعدها تأثيرا في تكوينها مشكلة الزواج بالنسبة إلى الشبان". فالملاحظ أنه لم يتوقف عند حدود البلد، بل رأى في هذه المشكلة آفة عامة على كل البلدان، وهي تمس قضايا المجتمع وقيمه في أعماقها، وهذا يوحى بالنظرة العميقة والمتبصرة للشخصية المثقفة في الجزائر، حيث يسوق صاحب المقال الكثير من الشواهد بغية التأثير وتحقيق الفائدة للجميع.

- في بيان التعليم:

تعتبر قضية التعليم من القضايا الجوهرية التي طرحها كتاب المقال، مستفيدين من الخطاب القرآني الداعي إلى العلم، ومن طبيعة الواقع الذي فرضه المستعمر، بعد انطلاقه في حملات التجهيل وزرع الخرافة بين الجزائريين، فتحركت نخوة الكتاب المثقفين صوب التعريف بقيمة العلم في التقدم والازدهار، يقول الشيخ: "وجمعية العلماء تعتقد أنه لا يتم إصلاح التعليم في الداخل إلا إذا تم إصلاحه في الخارج لشدة الاتصال بينهما...، ومحال أن ينال التعليم الداخلي خيرا من معلمين يتخرجون من المقاهي، ويحصلون معلوماتهم من الجرائد الحزبية، ويتدربون في ميادين الحزبية على الشباب، وتنقص التعليم والتنكر للعلم..."، وهي دعوة صريحة إلى التأييد الفعلي والممنهج للعملية التعليمية التي ترتبط بالمجتمع كما ترتبط بالصحافة والأحزاب والنوادي الفكرية والأدبية التي من شأنها تعميق الفائدة، فالعلم نال حظه من فن المقال، نتيجة للحاجة الماسة إليه في بناء المجتمع.

خلاصة:

وهنا يمكن القول أن المقال الإصلاحي كان رائدا في الساحة الإبداعية الجزائرية، واستطاعت أن تحفظ الهوية الجماعية بفعل خصوصيتها ومطاوعتها لحدود المقاومة، فقد تمكن الكتاب الجزائريون من رصد كل الحقول الدلالية القوية التي من شأنها تقوية الصف وتمتين الأدب، وخدمة الشعور، كما عملوا على تقوية الشخصية الوطنية وتسليحها بالمبادئ والثوابت الوطنية والمعرفية، ففن المقال في الجزائر صدر عن العلماء والدعاة والمفكرين والمشايخ، كما تنوعت مواضيعه بحكم الحاجة المفروضة، والملاحظ أيضا أن هذا اللون في الجزائر اتسم بصلابة الحجة وقوة الإقناع، حيث حاول الكتاب محاوره ومحاججة العقول قبل القلوب، لأن التأثير المبني على الفاعلية والإقناع هو الذي يستمر ويقدم الفعل اللازم للنمو والازدهار.